

على مبارك - ذو الوزارات الثلاث

للأستاذ / أحمد حسن الشحات

الموجه العام بديوان الوزارة ، ومن أسرة على مبارك

حكم ظالم - وعزلة قاسية :

عاشت مصر فى ظل الحكم المملوكى والعثمانى معزولة عن أوربا ، وعن نهضتها الشاملة ، وعن علومها وثقافتها لعشرات السنين ، ولم يندمج حكامها فى شعبها ، ولم يصلوا أسبابهم بأسبابه ، ولم يشعروا نحوه بمشاعر الود والرحمة ؛ فكانوا يعيشون فى قصورهم ومعسكراتهم بعيدين عن الشعب .

وكانت معاملتهم لأبنائه تتسم بالتعالى والظلم والروح العدائية ، وكانت مواردهم المالية تؤخذ قسراً من قوت هذا الشعب ، وابتدعوا نظام الالتزام الذى لا يقوم على عدل وإنصاف ، بل على جور وإجحاف ، فليست له قواعد واضحة محدّدة يعرف بها الناس ما عليهم من ضرائب ، ولا يراعى ظروفهم فى أوقات الأزمات والضائقات الاقتصادية . وها هو ذا صديق مؤرخ يحب مصر هو مستر « بلنت » يكتب ما شاهده بنفسه فيقول : « كان من الأمور النادرة أن يرى الإنسان شخصاً فى الحقول ، وعلى رأسه عمامة ، أو على ظهره شىء أكثر من قميص . . . وأينما ذهبت كانت الحال كذلك ، وغصت مدن الأرياف فى أيام الأسواق بالنساء اللاتى أتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الأروام ؛ لأن جامعى الضرائب كانوا فى قراهن ، والكرباج مشهر فى أيديهم ، فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة ، وأصغينا إلى قصصهن ، واشتركنا فى استنزال اللعنات على الحكومة التى جعلتهن عرايا » .

ينزل الملتزمون وهم أناس جفاة غلاظ الأكباد ، وسادتهم أشد منهم جفاء وغلظة ، ينزلون القرى يطلبون من أهلها ضرائب يعجزون عن أدائها ،

ويضطرونهم إلى بيع ما لديهم من متاع أو حُلَى ، ومن لم يستطع دفع ما طلبوا ، فليذق الذل ألواناً ، والضرب ركلاً وسيطاً .

وكثير منهم يترك قريته هارباً هائماً على وجهه ، ومن هنا فقد المصريون الاستقرار والأمن ، واتسمت حياتهم بالاضطراب والتنقل ، وعز عليهم الشعور بالسعادة والطمأنينة ، وتمر عليهم الأعوام نهارها كليلها ، فطال عناؤهم ، واشتد بؤسهم ، وكان ظلام هذا الليل أرخى عليهم سدوله وناء عليهم بكلكله ، وإن كان صباحه ليس عليهم بأمثل .

وأما حالته الاجتماعية ، فإن أبناء شعب مصر فقدوا القدرة على العيش الكريم ، وشراء ضرورات الحياة من كساء وطعام ومتاع ، وفي ظل العزلة القاسية فشت الخرافات ، والعادات السيئة ، والأخلاق الفاسدة ، وعمَّ الجهل ، فلم تكن في مصر حكومة ، وبالتالي لم يعد في مصر التزام بتعليم رسمي منظم ، وانحصر التعليم في الأزهر ، وكان دور علمائه وطلابه محصوراً في الفروع والمتون والهوامش ، والاهتمام بالمناقشات اللفظية ، وبالشكل أكثر من الجوهر ، وانصرفوا عن العلوم العقلية ، ويحذرون من يقرأ في الفلسفة أو يشنون عليه الغارة ، أو يرمونه بالكفر ، وكان هذا ذروة فساد الفكر : فساد الانغلاق والتزمت وضيق الأفق . وكان أسلوب الفقهاء والعرفاء في كتابات هذا العصر يقوم على القسوة والضرب والمهانة ، وكان الجميع يُسكِّمون بهذا الأسلوب ، ولكنه تربوياً أسلوبٌ سيء يُدمر نفوس الأطفال ، وعقولهم .

برنبال الجديدة وأسرّة الشيخ مبارك :-

على رافد من روافد النيل يسمى « البحر الصغير » تقع قرية برنبال الجديدة حيث وُلد على مبارك سنة « ١٢٣٩ هـ ، ١٨٢٣ م » فأبوه الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجى .

وكان إبراهيم الروجى فقيهاً يحفظ القرآن الكريم ، ويُلِمُّ بقدرٍ لا بأس به

من أمور الدين وأحكامه ، فكان هو الإمام والخطيب بمسجد القرية ، والقاضى الذى يؤثّق عقود الزواج والطلاق ، ويفصل فى المنازعات ، وتولى أبنائه وأحفاده هذه المناصب ، ولهذا سميت الأسرة « بعائلة المشايخ » . وكانت أسرة كبيرة تضم نحواً من مائتى نفس ، يسكنون فى حارة تختص بمنازلهم .

وكان الشيخ مبارك مهيباً ، تزين هيئته الجميلة ولونه الأبيض فصاحة لسان ، وأدب جَمٍّ ، وآثار ظاهرة للصلاح والتقوى ، وكان لعلّى مبارك سبع شقيقات ، وإخوة غير أشقاء .

عناد وإباء :

فى إحدى الضائقات الاقتصادية التى كثيراً ما كانت تصيب أهلّ الريف ، عجزت الأسرة عن أداء الضرائب فاضطر الشيخ مبارك إلى الهجرة ، وأقام فى قرية الحمّادين بالشرقية ، وكان الشيخ مبارك قد أرسل ابنه علياً قبل أن يرحل إلى شيخ ضرير فى قرية « برنبال الجديدة » اسمه الشيخ « أبو عسر » ليحفظ القرآن الكريم ، وقد لقى منه أذى شديداً ، فرفض العودة إليه ، وكان حفظ القرآن الكريم فى نظر الناس حينذاك هو الوظيفة التى لا تعادلها صنعة أو حرفة ، ويقول على مبارك : « سمعتُ من أبى عن جدى أن عائلتنا شريفة ، ثم وجدتُ فى أمتعة والدى رحمه الله بعد وفاته « نسبة الشرف » فلم أجد أحداً من أجدادى احترِف حرفة من الحرف » .

ولم يطب له المقام فى قرية الحمّادين فتركها إلى عرب السماعنة بالشرقية ، فأحبوه وأجلّوه ، ومن أجله بنوا مسجداً ، ليؤمهم فى الصلاة ، انتفعوا منه انتفاعاً كبيراً ، وصار مرجعهم إليه فى الأحكام الدينية أو رضيت نفسه بالإقامة بينهم ، فأخذ يعلم علياً بنفسه أوّل الأمر ، ثم أرسله إلى شيخ اسمه احمد أبو جعفر وأقام فى منزله سنتين حفظ فيهما القرآن الكريم ، ثم توقف عن الذهاب إليه ، وعَصَى أمرَ أبيه ، لما كان يلقى من عصا الشيخ وأذاه ، وأراد أبوه أن يُرغمه على العودة إلى هذا الشيخ فأبَى وعَصَى

وتشبَّث بعصيانِه ، ولما علم أبوه وإخوته إصرارَه على الهرب إذا أرغم على العودة إلى شيخه ، تحدَّثوا إليه جميعاً فيما يريد أن يتوجه إليه من التعليم ، فقال لهم : إننى لا أريد أن أكون فقيهاً ، وأريد أن أكون كاتباً ، لما أراه على الكتاب من حسن الهيئة . فأرسله أبوه إلى كاتب يُعلمه الكتابة ، فرأى منه قسوةً وغلظةً ، فشكاها إلى أبيه ، فلم يحفل بشكايته ، عند ذلك هرب الصبى ، وقرىبا من قرية « صان الحجر » بالشرقية ، مرض بالريح الأصفر ، فأخذه رجلٌ من أهلها ، وأنزله فى بيته يمرضه ، ويعنى به حتى شفاه الله ، فلما سأله عن أهله قال : إننى يتيم ليس لى أهل ، وأبقاه الرجل عنده ، ورأى أباه وأخاه فى القرية يبحثان عنه ، فهرب من طريق آخر . ولكنه عاد إلى « برنبال » فاستقر فيها عند أخ له كان قد عاد إليها ، ثم جاء أخوه الذى كان يطوف بالبلاد باحثاً عنه ، فترضاه ولاطفه حتى عاد به إلى أبيه ، فالحقه بخدمة كاتب فى مأمورية « أبو كبير » ، ولم ينقده الكاتب أجره ، ثم تسلم حاصلَ الجباية ، فأخذ منه راتبه ، فأغرى الكاتبُ مأمورَ مركز « أبو كبير » فاعتقله ، ولبث فى السجن بضعة وعشرين يوماً ، وعلم أبوه بسجنه فذهب إلى عزيز مصر محمد على باشا ، وكان إذ ذاك فى منيا القمح ، فكتب بإخلاء سبيله ، وقبل أن يحضر أبوه جاء إلى السجنَ صاحبٌ له ، وأفضى إليه بحاجة مأمور زراعة القطن بناحية « أبو كبير » إلى كاتب ، فدلَّه السجنَ عليه ، ووصفه له بالنجابة وحسن الخط ، وجاء أمرُ الإفراج ، وذهب إلى مأمور الزراعة ، وكان أسود حبشياً يدعى « عنبر أفندى » ، فتلقى الفتى لقاءً طيباً ، وبعد يوم لحق به أبوه ، فقدَّمه إلى عنبر افندى فأكرمه ، وخيره بين أن يأخذ ولده ، وبين أن يتركه ، ليعمل كاتباً له ، ففضَّل أن يتركه فى خدمة هذا المأمور .

نقطة التحول فى حياة على مبارك :

كان عنبر افندى عبداً أسود ، ولكنه مهيب جليل كريم الخلق ، ورأى على مبارك شيوخ البلاد وكبراءها ومشاهيرها من أصحاب الثروة والخدم والعبيد

يقفون بين يديه ، ويأمرهم وينهاهم ويبادرون إلى الامتثال والطاعة ، وأثارت مشاهداته هذه كثيراً من التأمل والتعجب ، وجعل يسأل عن حال هذا المأمور ونشأته ، وعرف أنه كان مملوكاً لسيدة ذات مكانة أدخلته مدرسة قصر العيني عندما أنشأها محمد على وألحق بها الصبيان ، وعرف أن حكام البلاد ، وأرباب النفوذ والسلطة لا بد أن يكونوا من هذه المدرسة ، وحرك ذلك فى نفسه الطموح إلى العلم ، ورغبة الخروج فى مدارجة ، وتسئم ذراه .

وكان قد عرف الطريق إلى مدرسة قصر العيني ، وكيف يسلكه ، وأسماء البلاد التى يمر بها ، وسافر الفتى ، ولقى فى طريقه جماعة من الأطفال مع رجل يرافقهم ، ورأى مع كل منهم دواة وقلماً ، وعلم منهم أنهم من صبية الكتاتيب ، ورأى الصبية خطه ، فأعجبوا به ، وأعجب الرجل رفيق الصبية بالفتى وخطه ، ورغبه فى أن يلتحق مع هؤلاء الصبية بالمكتب .

وقال له : إن نجباء الصبية يدخلون المدارس بلا واسطة . وصادف ذلك بغيته ومأموه ، ودخل معهم مدرسة منية العز ، وكان ناظرها من معارف أبيه وطلب منه أن يعدل عن عزمه ، ولما رأى منه إصراراً أرسل إلى والده ، فقدم ، وخطفه أبوه وسار به إلى قريته « برنبال الجديدة » ، وحبسه عشرة أيام ، وكانت أمه تستعطفه وهى تبكى لبقى معها ، فقد كان ابنها الوحيد ، وشقيقاً لسبع بنات ، وأظهر أنه استمع إلى طلب أمه ، وخرج ليرعى الأغنام ، واطمأن أبوه ، حتى كانت ليلة مقمرة تسلل فيها الفتى مصطحباً دواته وأدواته ، ويمم وجهه شطر مكتب منية العز ، فدخله مصباحاً مع أن المسافة بين البلدين طويلة لا يقطعها راكب الدابة فى ليلة واحدة .

وكيف قطعها فى ليلة واحدة وهو ابن الثانية عشرة من عمره ؟ إن ذلك ليدل على أن نفسه قد طويت على آمال كبار ، وطموح غلاب ، وإرادة قوية ، وصدق الشاعر إذ يقول :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

ولله در القائل :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وقرر الفتى ألا يُغادر المكتب ليلاً أو نهاراً حتى لا يتمكن أبوه من خطفه . وعاد إليه أبوه ، ورجاه أن يعود معه ، ولم تفلح المحاولات . وسافر من القاهرة عصمت افندى ناظر مكتب الخانقاه إلى « منية العز » ليختار نجباء تلاميذ مكتبها ، ليلتحقوا بمدرسة قصر العيني ، فكان على مبارك واحداً منهم ، وحضر والده ، والتقى بعصمت افندى ، ورجاه أن يترك له ولده ، فترك الخيار للفتى ، فاختار المدرسة ، ولم يفلح بكاء والده ، ولا استعطاف الناظر والمعلمين ، الذين استعان بهم كي يقنعوه بالعودة مع أبيه .

في مدرسة قصر العيني كربٌ ثم انفراج :

دخل على مبارك مدرسة قصر العيني وهو في الثانية عشرة من عمره سنة ١٨٣٥ ، ولكنه رأى فيها ما صدم آماله ، رأى فوضى في الدراسة ، وسيطرة النظام العسكري الصارم ، وسوء معاملة المدرسين للتلاميذ ، وخشونة أماكن النوم ، ورداءة الطعام ، فمرض مرضاً شديداً ، وتكاثرت عليه العلل والأمراض والهموم ، فأدخلوه المستشفى وفيها وجد فوق ما وجد بالمدرسة من الجوع والإهمال ، وأشرف على الهلاك ، وحضر والده ، وطلب منه أن يدعو له ، وغادر الشيخ المستشفى ، ولسان حال الفتى يقول :

عسى الكرب الذى أمسيتُ فيه يكون وراءه فرَجٌ قريب

وشاءت إرادة الله الكريم أن يسترد الفتى صحته ، ولا يمرض بعد ذلك ، ثم عاد إلى مدرسته ودروسه ، ومما يدعو إلى التأمل والدهشة أن على مبارك الذى صار من أعظم المهندسين المصريين ، وأكثرهم شأنًا كان في دروسه في مدرسة قصر العيني يجد أشق العلوم عليه ، وأصعبها وأبعدها عن فهمه وإدراكه الهندسة والحساب والنحو ! ثم حين نطَّلَعَ على كتاب « علم الدين » نعجب من أنه أقرب ما يكون إلى علماء اللغة المتفرغين لها ، المتبحرين فيها ، وفي آدابها . ونعجب أيضاً من إحاطته بعلوم الشريعة وفقهها .

وفى الحساب والهندسة حين درس ناظر المدرسة ابراهيم بك رافت لصفات التلاميذ وهو منهم أحسن أن مغاليق هذه العلوم وطلاسمها فتحت له ، ويسرت عليه أعظم اليسر ، وإذا موهبته الفذة فى الرياضيات تجد طريقها إلى الظهور ، حتى صار أول فرقته فيها ، ولفت نجاحه نظر ابراهيم بك رافت فصار يضرب به المثل ، ويجعل نجاحه دليلاً على تأثير أسلوب المدرس فى تثقيف أذهان التلاميذ .

على مبارك طفلاً وصبياً ظاهرة فريدة لم تتكرر :

لو ذرعنا مصر بحريها وقبليها ، ونجوعها وقراها ، ومدنها : صغراها وكبرها لن نجد طفلاً تجسدت فيه ملامح الإباء والتحدى فى سن صغيرة كما نجدها عند هذا الطفل فيما بين السادسة والثانية عشرة من عمره . إن نفوره من الذل ، وكراهية قسوة المعلم ظاهرة تدل على أن نفس هذا الفتى الصغير تأبى الذل ، والضميم ، وذلك ينبىء عن سمو الخلق ، وعزة النفس التى تستجمع حولها سمطاً من الأخلاق الكريمة ، ولقد كانت نفسه العزيزة من أسباب نبوغه ، فلو هو رضى بالذل والهوان لما تجاوز أن يصير كاتباً مغموراً ، وإن طموحه إلى أن يكون فى مكانة تحميه من الذل والهوان لهو فيض النفس العزيزة التى تطمح إلى المعانى ، وهو شعور كريم كان له أثره فى حياته .

ولقد اقتبس على مبارك شيئاً من أخلاق أبيه وأجداده ، فقد كانوا على أخلاق فاضلة ، ونفوس طيبة ، وإننا نلمح عزة نفس أبيه حين لم يطق صبراً على اعتقال ابنه ، وذهب إلى منيا القمح ، حيث كان عزيز مصر محمد على باشا ، ورفع إليه مظلمته ، فالشكوى من الظلم ، والاستغاثة بولى الأمر ومقابلته محمد على باشا لمن الأمور التى تحتاج فى ذلك العصر إلى جرأة وشجاعة ، وهكذا اقتبس على مبارك من أبيه تلك النفس العزيزة ، وهذا فضل نسجله للشيخ مبارك .

ويلفت النظر فى ظاهرة على مبارك أنه هو الذى حدد نوع التعليم الذى يريده ، وذلك أمر غير معهود ، ثم الرغبة العارمة فى التعليم فى هذه السن

التي لا تكون فيها لدى الطفل القيم والاتجاهات والميول وخاصة في العصر الذي نشأ فيه ، وفي الريف حيث تسود الأمية ، ويتفشى الجهل ، وتنعدم الهمم لعمل شيء .

الأول على فرقته في مدرسة المهندسخانة :

وفي سنة ١٨٣٩ اختير ضمن نجباء مدرسة « أبى زعل » ليلتحقوا بمدرسة المهندسخانة ، وكان قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، ومكث خمس سنوات حتى استكمل علوم المدرسة كلها ، وظهر ذكاؤه ، وبدأت عليه مخايل النجابة منذ دخلها ، فكان أول فرقته .

الطالب النجيب أحد أعضاء البعثة الخامسة إلى فرنسا :

يختار سليمان باشا الفرنساوى أعضاءها ، وكانت أكبر البعثات شأناً وفيها بعض أنجال محمد على باشا وإبراهيم باشا ، ومنهم ابنه اسماعيل الذى صار الخديو اسماعيل ، وكان على مبارك ممن اختيروا لها من المتفوقين فى مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددها « ٧٠ » عضواً ، وسافرت البعثة إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ ووجهتها تعلمُ الفنون الحربية ، ولقى على مبارك متاعب شديدة فى تعلم اللغة الفرنسية ، فقد صدر قرار بأن يتلقى أعضاء البعثة دروسهم بالفرنسية ، وكان منهم من لم يتعلمها بعد وهو منهم ، وبقي مدة لا يفهم الدروس التى يسمعها ، وخاف من العقابة ، ولكنه واجه المشكلة بالصبر والمثابرة وقوة الإرادة ، واستقل هو بدارستها ، واشترى لذلك الكتب الأولية فى الهجاء واللغة ، وأكبَّ عليها وتفهمها ، وحفظ جزءاً من كتاب التاريخ ، وحفظ ألفاظ الأشكال الهندسية واصطلاحاتها ، وانقطع لذلك ثلاثة أشهر متوالية مع حضوره الدروس التى يسمعها بالفرنسية ، وتعود بسبب ذلك السهر حتى آخر لحظة من حياته ، فلم يكن ينام فى اليوم والليلة إلا ثلاث ساعات فقط . وأثمر الحفظ والجهد ثمرةً كبيرة ، وصار أول البعثة كلها .

ويلفت النظر فى حياته برهً بوالديه ، وحنوهً عليهما ، فقد أجرت

الحكومة عليه مرتباً شهرياً قيمته « ٢٥٠ قرشا » ، فجعل نصفها لأهله يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويرسل إليه النصف الآخر ، وهذا دليل وفائه ومكارم أخلاقه ، وإنكاره ذاته ، وهذه المزايا زادت شخصيته سطوعاً وبهاء .

مدرسة متز " Metz " الحربية تفتح له أبوابها :

انقضى عامان على البعثة بباريس ، وألحق الثلاثة الأول من أعضائها وهم على مبارك وحماد عبد العاطى وعلى ابراهيم بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز Metz ، ونالوا رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى ، فأقاموا سنتين آخرين يتعلمون الفنون الحربية ، وبعد الامتحان النهائى ألحقوا بالجيش الفونسى ، فكان على مبارك فى الألاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، واكتسب من هذا الفرقة خبرةً كبيرةً فى الفنون الحربية والهندسة .

وفاة ابراهيم باشا ، دعوة على مبارك :

أصدر الخديو عباس بعد توليه الحكم قراراً بعودة نوابغ البعثة فوراً إلى مصر ، فرجعوا إليها سنة ١٨٥٠ ، وأصيب التعليم بالجمود والإهمال ، وعيّن على مبارك مدرساً بمدرسة طُرّه الحربية ، وتركها الطلاب ، وصار بلا عمل . وصحب سليمان باشا الفرنساوى فى مهمة حربية هى اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية ، وذهب معه إلى دمياط ، فأدى المطلوب منه .

زيارته لأهله فى « برنال الجديدة » :

بعد أن خطط رسماً متصلًا لمواقع بحيرة المنزلة ، وكتب تقريراً عنها ذهب إلى قريته ، ودخلها ليلاً ، وذهب إلى منزله ، وطرق الباب ، وكان أبوه غائباً بمصر ، ولم يكن بالدار سوى أمه ، وبعض إخوته ، وكان قد فارقها منذ أربعة عشر عاماً ، ولم تتوقع حضوره .

فسألت : من أنت ؟

فقال : ابنكم على مبارك . فقامت مدهوشة ، وفتحت الباب ، وتمعنّت

فيه ، وكان بردائه العسكري متقلداً سيفه ، وحاملاً شعار الضباط ، ولما تحققت أنه هو ارتمت عليه تعانقه ، وغشى عليها من الدهشة والفرح ، ثم جعلت تضحك وتبكي وترغرد ، فأقبل أهل البيت ، وهرع الأقارب والجيران إلى الدار ، وانقضى الليل ، والناس بين غاد ورائح يسعون لتهنتته ، وأقامت أمه الأفراح ابتهاجاً بعودته ، وبلوغه الرتبة العالية ، وبعد يومين عاد إلى دمياط ، وعرض على سليمان باشا الفرنساوى نتيجة تجواله فى بحيرة المنزلة ، فوقعت عنده موقع الاستحسان والإعجاب ، وقرر عباس إلحاقه بمعيته ، وأتم فى خلال ذلك مهمات هندسية .

رُبَّ ضارة نافعة : تولى « سعيد باشا الحكم بعد وفاة الخديو عباس ، وأصدر قراراً باشتراك على مبارك فى حرب القرم ، وكان يشعر أن القصد من هذا السفر إبعاده ، والنكاية به ، وقد ذكر أنه أفاد كثيراً من هذه الحملة ، فرأى بلاداً وعوائد كان يجهلها ، وعرف أناساً ، وتعلم اللغة التركية ، ثم عاد إلى مصر ، وكان سعيد باشا كثير الأهواء والاستجابة لوشاية الواشين ، واقرن سفره إلى بلاد القرم بقرار إلغاء مدرسة المهندسخانة ، فحرم البلاد خدمات على مبارك العلمية ، وكان واجباً على الخديو سعيد أن يستخدم مواهبه فى ميدان التعليم . وقد عانى على مبارك كثيراً من المتاعب لما كان يُدبر ضده من مؤامرات ودسائس ، وتعرض للفصل والإبعاد مرات عديدة .

إصلاحات على مبارك الكبرى :

ألحقه اسماعيل بمعيته ، وجعله ناظراً للقناطر الخيرية ، وفى سنة ١٨٦٧ جعله وكيلاً لوزارة المعارف ، ثم أنعم عليه برتبة الباشوية ، وأسند إليه مصلحة السكك الحديدية ووزارة المعارف والأشغال ، ونظارة الأوقاف .

ويبدأ العصر الذهبى فى حياته الذى ازدحم بالأعمال العظيمة التى خلّدت اسمه فى تاريخ مصر الحديث ، وتجلت كفاءته الممتازة فى قيامه ونهوضه بأعباء الوزارات والمناصب العالية ، ولكنه بذّهم فى اجتماع عدة مزايا فى شخصه

هى : الكفاءة والجلد على العمل ، والإخلاص والنزاهة فى أداء واجبه ، وإتقان أعماله الكبيرة التى تُعهد إليه ، ولقد وصفه الأمير عمر طوسون بأنه : « يكاد أن يكون أعظم رجال البعثة التى ذهبت إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ علماً وعملاً وآثراً » ، بل يكاد يكون أعظم رجال عصره فى مصر ، فالآثار التى خلفها تزيد فى مكانته السامية ، وتُعلّى من قدره على مر الأيام ، وهى وحدها أفصح لسان فى الثناء عليه .

١ - إصلاح التعليم وإنشاء المدارس :

من قال إن على مبارك هو أبو التعليم فى مصر ، لم يتجاوز الحقيقة ، فإنه حين يقوم بإصلاح التعليم فى فترة شديدة التقلب والاضطراب ، حافلة بالكيد له ، والتآمر ضده ، ذخرة بالفتن ، مشحونة بأجواء السخط والثورة ، ثم ينجح فى تنفيذ مشروعه القومى العظيم ، ويبذر فى أرض مصر بذور التعليم ، وينشر المدارس ، وينظم أحوالها ، ويدبر لها المعلمين ، ويسخر كل ما فى يده من سلطات باعتباره وزيراً لعدة وزارات ، فهذا شأن أولى العزم من الرجال ، وذوى البسطة فى التنظيم والتخطيط ، وأرى أنه فى كل ما حقق من مشروعات كبرى فى التعليم والتأليف والهندسة أشبه أو أقرب ما يكون إلى أصحاب الرسائل الشاملة ، والتى حين تجد طريقها إلى العقول والنفوس تغيرها من حال إلى حال ، وتهيئ الأمة كلها للعروج فى معارج الرقى والنهضة والتمدن .

لقد اتجهت معظم جهوده إلى ترقية التعليم ، وكان يتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ، ويدخلها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها ، ويطمئن على حسن نظامها ، ووجه عنايته إلى إصلاح التعليم فى المكاتب ، وتحويلها إلى مدارس ابتدائية نظامية ، فوضع لائحته المشهورة بلائحة رجب سنة ١٢٨٤ ، وأنشئ فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم المديرية ، وأعد كثيراً من الأمكنة الموقوفة ، وجعلها معاهد للتعليم ، واستخدم جانباً من أموال الأوقاف الخيرية فى الإنفاق على التعليم ،

وحول المكاتب الأهلية بالقري وكان عددها « ٥٠٠٠ » مكتب إلى مدارس ابتدائية نظامية ، وهياً لها سبل إدارتها ، بل لقد طلب من الخديو اسماعيل أن يتبرع من أملاكه الخاصة للنهوض بالتعليم والتوسع فيه ، فأمر الخديو بتخصيص « ٢٠,٠٠٠ » فدان ، وجمع الأموال التي آلت إلى بيت المال ، ومبلغ « ٣٥,٠٠٠ » جنيه لهذا الغرض ، وأوقف على إنشاء المكاتب « ٢٢,٠٠٠ » فداناً للغرض ذاته ، وقاد حملة لجمع التبرعات ، بل لقد رأس الخديو مؤتمراً في طنطا لجمع التبرعات لإنشاء المدارس ، وإنهالت التبرعات من المواطنين .

واهتم بالتعليم العالي ، وحل عن طريقها مشكلة توفير العدد المطلوب من المدرسين الأكفاء ، فقد أنشأ مدرسة الإدارة « الحقوق » ، ومدرسة اللسان الحبشى ، ومدرسة اللسان المصرى القديم ، وفرقة الرسم الملكية ، وفرقة النقاشين ، ومدرسة دار العلوم .

٢ - دار العلوم أجل المؤسسات التعليمية :

أنشأ على باشا مبارك مدرسة دار العلوم العالية سنة ١٨٧٢ ، فقد رأى بثاقب فكره أن اللغة العربية تحتاج إلى مدرسين مستثيرين يجمعون بين العلوم الدينية والعلوم العصرية ، فإن سبب تخلف بلاد المسلمين تفريط علماء المسلمين فى دراسة علوم التاريخ والرياضيات ، ولهذا وضع لدار العلوم منهجاً يضم علوم الدين والعلوم الحديثة ، وكان من بين الأساتذة والعلماء الذين حضروا بها : فى الأدب : الشيخ حسين المرصفى . وفى الفلك : اسماعيل باشا الفلكى . وفى الطبيعيات : منصور افندى أحمد . وفى فقه المذهب الحنفى : الشيخ عبد الرحمن البحرواى . وفى التفسير والحديث : الشيخ احمد المرصفى . وفى علم النبات : أحمد بك ندى . وفى علوم الطبيعيات : المسيو بكتيت . وفى التاريخ العام : فرانس باشا . وفى فن السكة الحديد : المسيو فيدال باشا .

وقامت دار العلوم برسالتها على الوجه الأتم ، وقد رأس الإمام محمد

عبده امتحانها سنة ١٩٠٤ . فكان مما قاله فيها : « . . وإنى أنتهز هذه الفرصة
للتصريح بمكانة هذه المدرسة فى نفسى ، وما أعتقد من منزلتها فى البلاد
المصرية ، ومن اللغة العربية . . فإن باحثاً مدققاً إذا أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية ؟ وأين تحيا ؟ وجدها تموت فى كل مكان ، ووجدها تحيا فى دار
العلوم . . » .

وإننا حين ننظر فى آثار دار العلوم - منذ أنشئت حتى الآن - فإننا نرى
هذه الآثار بعيدة المدى فى إحياء اللغة العربية ، وازدهار آدابها ، وتخريج رجال
أفذاذ أكفاء ، علماء وشعراء وأدباء وفقهاء ووزراء ، وأساتذة جامعيين أحباء ،
لهم فى الأدب إسهام ، وفى الشعر وحى وإلهام ، ونشاط جَمّ فى حركة
التأليف ، وفى النهوض بالتعليم فى جميع البلدان العربية والإسلامية .
فأنعم بها من دار مذ كانت الدار ، لها فى القلب كل حب وإعزاز
وإكبار .

٣ - ريادته للتعليم الجامعى :

المدارس العالية التى أنشأها ، وأشرنا إليها آنفاً كانت نواة لقيام جامعة ،
والمدارس الثانوية التى أنشأها خرّجت أعداداً قوّت الدعوة إلى إنشاء الجامعة
الأهلية التى خرجت إلى حيز الوجود سنة ١٩٠٨ ، لإنشاء على باشا مبارك
للمدارس وتنظيمه لها ، هياً الفرصة لتحقيق إنشاء جامعة فى وقت قياسى ،
وتصير الجامعة الأهلية جامعة رسمية سنة ١٩٢٥ ، وتكون هى أم الجامعات
المصرية ، والتى تمد الجامعات العربية والإسلامية وغيرها بحاجاتها من
الأساتذة . وحققت جامعات مصر نهضة علمية وفكرية وثقافية واجتماعية
باهرة ، وخرّجت من الشخصيات والعقول ما تزهى به مصر وتتيه ، وإن
النهر ليتدفق ، وإن عطاءه لموصول غير ممنون ، وإن ما ننعم به الآن من حضارة
وعلم وفن وثقافة هو من ثمرات إصلاحات على باشا مبارك التعليمية .

٤ - على باشا مبارك وتعليم البنات :

بعد عام واحد من توليه وزارة المعارف ، وفى ٦ مايو سنة ١٨٦٩ صدر

أمر الخديو إلى على مبارك يقول : « قد اقتضت إرادتنا أنه بمعرفتكم يجرى إنشاء محل مدرسة بجنيته تعليم البنات فى أرض الميرى المتخلفة من بعد التنظيم فى شارع باب اللوق ، فيلزم المبادرة بمقتضى ذلك كما هو مطلوبنا » . وفى الشهر التالى أصدر أمره ثانيا إلى على مبارك ليتحقق هذا المشروع ، ومن هذا التاريخ : اهتمت الدولة بالتعليم العام للبنات بعد أن كان تعليمهن قاصرا على الولاة منذ عهد محمد على ، وبعد أن كان تعليم البنات محدوداً جداً ، ووفقاً على بعض المدارس الأهلية ، أجنبية وقبطية . ولقد ارتبط هذا الاهتمام بتولى على مبارك لنظارة المعارف فى ذلك التاريخ ، ودعا إلى تعليم المرأة ، وخروجها إلى الحياة والعمل قبل دعوة قاسم أمين وهدى شعراوى ، وكان كتابه العظيم علم الدين منبراً اعتلاه ، ودعا منه إلى تعلم المرأة ، وتثقيفها ، فقد جعل « تقية » زوجة الشيخ علم الدين (وكانت جاهلة) تتعلم على يدي زوجها ، وتصير عالمة عميقة الغور فى علوم شتى .

٥ - إنشاء دار الكتب سنة ١٨٧٠ :

يقول على مبارك فى الجزء الثالث من الخطط « ص ١٤ » : « ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانه خديوية داخل الديار المصرية ، أضاهى بها كتبخانه باريس ، فاستأذنت الخديو اسماعيل باشا فى ذلك ، فأذن لى ، فشرعت فى بناء الكتبخانه الخديوية هناك أيضا (بدرب الحماميز) وبعد فراغها جمعت فيها ما تشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف ، زيادة على ما صار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها . . فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التى حدثت فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، وحصل بها النفع العام للخاص والعام » .

واستعادت بها مصر مركزها الريادى فى العناية بالكتب والمكتبات ، والذى فقدته فى عصر الظلم والظلمات أيام حكم العثمانيين . واعتناء على مبارك بإنشاء دار الكتب ناشئ من إيمانه بأن المطالعة تضيف إلى عمر الإنسان

القارئ عمراً جديداً ، فهي تزيد البركة فى العمر ، كما أن قلة الاطلاع بمثابة قصر العمر ، ويستشهد هو على ذلك بقول الشاعر :

وفى الجهل قَبْلَ الموتِ موتٌ لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

٦ - إنشاؤه مجلة روضة المدارس :

حين كان وزيراً للمعارف تولت الوزارة إصدارها والإنفاق عليها ، والهدف منها :

إحياء الآداب العربية ، ونشر المعارف الحديثة . وكانت المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتّاب ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، واستمرت ثمانى سنوات ، فأفادت الثقافة فائدة كبرى . قال عنها المسيو دور بك مفتش التعليم العام : « وهذه المجلة كانت توزع مجاناً على التلاميذ ، وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف ؛ لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للنابھين منهم لنشر أبحاثهم القيمة ، فكان ذلك مما يشجعهم ، ويستحث همهم ... » .

الخطط التوفيقية الأثر الخالد للعلامة على باشا مبارك :

على هذا أجمع من كتبوا سيرته ، وما أكثر من كتبوا فى سيرته وأشادوا به ، فمنهم من يقول : « ولو لم يكن له غيره لكفاه به خلوداً على الزمن ، وما أعجب أن يقوم الرجل بهذا الجهد الضخم فى حياة لم تهدأ من رحمة العمل الرسمى » . وكاتب آخر يقول : « والخطط التوفيقية أضخم عمل فى تاريخ مصر فى القرن الأخير وقد ينتهى القرن العشرون دون أن يظهر ما ينارعها هذه المكانة » .

وثالثٌ يقول : « الخطط التوفيقية ذلك العمل الفذ الذى يعتبر من أهم الكتب التى صدرت وعبر من خلاله عن حبه العميق لكل حجر وأثر ، ورصد التغير الاجتماعى الذى تعيشه مصر ، وأظهر مقدرةً فائقة على تحقيق المعالم والمواقع ... وكل هذه الأعمال تعكس ولاء المثقف العميق لوطنه وشعبه . »

كان على باشا مبارك وزيراً للمعارف فى حكومة رياض باشا التى شكلت سنة ١٨٨٨ ، وفيها ظهر كتاب الخطط التوفيقية ، وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها جغرافيتها وتاريخها فى عصورها القديمة والحديثة ، ويُعد تكملة لخطط المقرئى ولكتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية . وفى الخطط التوفيقية وصف شامل لمدين مصر ، وقراها ونيلها وترعها وبحيراتها وسواحلها ، وتخطيط كامل لأحياء القاهرة مع تراجم علماء ومصر وشعرائها وأدبائها وحكامها ، وتقع فى عشرين مجلداً ، أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة ، والجزء السابع للاسكندرية ، والأجزاء الباقية لبقية مدن القطر المصرى ، والجزء الثامن عشر لمقياس النيل ، والجزء التاسع عشر لنيل مصر ، ورياحاتها ، ومنشآت الرى فيها ، والعشرين لتقود مصر القديمة والحديثة .

وفى الخطط كتب سيرته الذاتية ، وأعطى نموذجاً من نفسه للعصامية ، والجهد الشاق والقدرة على التفوق بالرغم من العقبات ، وسجل كفاحه العظيم فى سبيل العلم .

وهو أول من كتب سيرته الذاتية قبل الشيخ الإمام محمد عبده ، ومذكرات أحمد عرابى ، وليالى سطىح لحافظ إبراهيم ، والأيام لطله حسين ، وحياتى لأحمد أمين ، وتربية لسلامة موسى ، وأنا للعقاد ، ومعنى لشوقى ضيف ، ويوميات طالب بعثة وأوراق العمر للدكتور لويس عوض ، وزهرة العمر وسجن العمر ، ويوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وخليها على الله وكناسة الدكان ليحيى حقى . وبصفة عامة فهذا الكتاب غرة فى تاريخ مصر العلمى ، ومأثرة خالدة للعلامة على باشا مبارك وهو مرجع لكل باحث فى شئون مصر العلمية والهندسية والتاريخية .

رواية « علم الدين » أول عمل أدبى روائى فى الأدب العربى الحديث :

تقع قصة علم الدين فى ألف وأربعمائة وثمان وستين صفحة فى أربعة أجزاء ، وسمى فصولها مسامرات عددها « ١٢٥ » مسامرة ، والقصة فى

جملتها نقد للحياة الاجتماعية العربية ودعوة لاقتباس الحضارة الغربية ، وتحتوى على قدر كبير من المعلومات والمعارف المتنوعة ، ويتعجب القارئ لهذه القصة من إلمام عقل واحد بكل هذا العديد من المعلومات والحكم والأفكار والقصص الغابرة ، والأمثلة المتواترة من النثر والشعر .

وقد أجرى هذه المسامرات فى صورة أحاديث بين جماعة من الأصدقاء هم شيخ أزهرى وابنه ، وسائحٌ انجليزى محب للغة العربية عالم بها .
أما أسلوبها فسهل يسير صحيح العبارة ، يأتى السجع فى كتاباته دون تكلف ، وهو يسبق عصره بكتابه هذا .

وفى مقدمة علم الدين يبدو على مبارك متديناً ، ويفسر فى الوقت نفسه ظواهر الطبيعة تفسيراً علمياً ، ثم يخلص من هذا المزج بين الإحساس الدينى والإدراك العلمى إلى إحساس صوفى إنسانى ، ويخرج منه إلى إحساس وطنى .

واهتمامه بتعليم المرأة يبدو واضحاً فى أنه جعل زوجة الشيخ علم الدين الجاهلة الفقيرة وتسمى « تقيّة » تتعلم على يد زوجها حتى تجادله فى أمور دقيقة من شئون الفكر والفلسفة . . ثم هو يرمى من وراء تعلّم « تقيّة » على يد زوجها الشيخ « علم الدين » إلى تنمية مسئولية الزوج نحو زوجته ، وقيامه بواجبه حيالها من رعاية وتعليم .

وهو يحرض أهل الشرق على أن يسلكوا سبيل الغرب فى حضارته ، ويتثقفوا بثقافته وفنونه . . فالسائح الانجليزى يتحدث عن التياترو فى أوربا ، والشيخ يصغى إلى حديثه عن المسرح ومكائنه فى حياة الغربيين وغايتهم منه ، وإفادتهم من عبره ودروسه ، ويبدو من خلال حديث السائح الانجليزى عن المسرح دعوته أهل الشرق إلى اقتباسه ، واتخاذها سبيلاً إلى المعرفة وتهذيب الأذواق ، ويدعوهم إلى الخروج من العزلة التى يعيشون فيها ، وفى علم الدين فهم جيد عميق مستنير للإسلام والقرآن الكريم ، ومعرفة وافية بعلم الدين والتفسير .

لقد كان « علم الدين » ميداناً واسعاً أودعه على مبارك خلاصة ما اكتسبه من معرفة عميقة بالحياة ، فلقد مزج فيه الرؤية بالرأى ، والخبرة بالخبر ، والحكم بالحكمة . وعلى مبارك حين وضع هذا الكتاب فإنه كان يقصد من ورائه إلى أهداف يريد تحقيقها ، وهو أنه يعمل على إزالة غشاوات العزلة المظلمة عن شعبه والتي ضُربت حوله ، سدت عليه منافذ المعرفة الصحيحة ، والفكر المستنير ، والثقافة الحقيقية . . هذه العزلة التي ملأت حياته وقلبه وعقله بالخوف والرغبة والخرافات ، والعبادات السيئة والعقائد الفاسدة . وعلى مبارك يعلم أن هناك قوى تشد الشعب إلى الورا ل يبقى جاهلاً بعيداً عن أداء دوره الحضارى ، فيعمل جاهداً على دفعه للخروج من حصار عصر كان من أشد فترات حياته سواداً وتخلفاً ، فهذا الكتاب ظهر فى وقت إنتقالى ليقوم برسالته فى التثقيف والتعليم والتبصير والكشف عن الحقيقة ، وفرز النافع من الزبد الذى لا خير فيه .

ومنذ بداية الكتاب إلى نهايته يدعو على مبارك المصرين إلى ضرورة الخروج من عالم العصور الوسطى ، فلقد واجه أول ما واجه الاعتقاد الفاسد القائم على أن المسلم يحرم عليه العمل مع غير المسلم أو صداقته ، أو التعامل معه ، لأنه عدو . فقد قدم المستشرق الانجليزى أحد أبطال الرواية إلى القاهرة وسعى إلى صحبة عالم من الأزهر كى يسيرا معاً ، ويسبحا معاً فى الأرض والحضارات والعصور .

والتقى الخواجا بالشيخ علم الدين ، وتمَّ بينهما الاتفاق ، وعلم تلاميذُ الشيخ علم الدين المجاورون بالأزهر فجاءوا إليه فزعين ، واستنكروا منه أن يصاحب رجلاً ليس مسلماً مستشهدين بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . . ﴾ وقد رفض الشيخ منطقهم ، معرفاً إياهم بالمفهوم الدينى الصحيح للعدوِّ والمعاهد ، وردَّ عليهم منطقهم الفاسد مستشهداً على خطئهم فى عدم التعامل مع كلِّ من ليس على الإسلام بقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ

أن تبرؤهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا علي إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿١٠﴾ فهذا الخوارج ليس من المحاربين وإنما هو من المعاهدين الذين لم يحاربوا المسلمين ، ولم ينقضوا لهم عهدا ، وتعليمه العلم مفيد فقد يُسلم ، وقد يبقى على دينه ، ولكنه يدافع عن ديننا إذا تعرض له أحد بنقد أو إساءة .

وهو في مسامراته يعقد مقارنة واسعة بين معالم التقدم في أوروبا ، وبين التخلف في وطنه ، وهو بهذا يدعو إلى البحث عن أسباب الفروق الواسعة ، للحق بركبها ، ومع إعجابه بالحضارة الأوربية فقد بقي محتفظاً ببصيرته الناقدة الثاقبة ، فهو يرفض التقليد ، ويتجاوز الظواهر ، وينفذ إلى الجوهر ، ويتعرف على الصالح في هذه الحضارة ، لينقله أبناء وطنه وينتفعوا به ، ويحيلوه عنصراً من عناصر القوة والبناء .

وجهوده في بناء الإنسان المصرى :

كان على باشا مبارك يعمل على بناء الإنسان المصرى الذى قاسى من إذلال الحكام له ، وهذا البناء يقوم على منع الضرب والقسوة فى المدارس ، وقد صدرت لائحة رجب بتحريم الضرب لآثاره الضارة بالجسم والنفس والخلق ، وطلب من المعلمين أن يسلوكوا بتلاميذهم طرق النصيحة والأسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القريحة ، بإهداء المجتهدين منهم جوائز ، فإن ذلك باعث لغيرتهم وازدياد رغبتهم ، أكثر مما يكون بالأذى والضرب ، وقد ذاق وهو طفل غلظة المعلمين وسوء معاملتهم ، فنفرت نفسه من الذل ومن قسوة المعلم ، وكان يرى فى التعليم علاقةً رحيمة بين المعلم والتلميذ ، وكان يعامل تلاميذه كوالد رحيم يرفع شأنهم بنفسه ، وينير أمامهم سبل المعرفة ، ويفتح أذهانهم على آفاق جديدة من الثقافة ، ويخاطبهم فى حب واحترام ، فغرس فى نفوسهم الكرامة ، وعلمهم الإيثار والتضحية ، فقد علمته تجربته فى

الكتاتيب أن القسوة وسوء المعاملة تعلم النشء الجبن ، وتغرس فى نفوسهم
أرذل الخصال بقدر ما تنفرهم من المعلم .

ويقوم بناؤه للإنسان المصرى أيضاً على نشر الثقافة العامة عن طريق إنشاء
المدارس وإصلاح التعليم فيها ، وتأليف الكتب ، وعلى توسيع دائرة اتصاله
المباشر بالمصريين ، فقد جعل من بيته فى الحلمية الجديدة وسيلة من وسائل
الإصلاح ، وجعله نادياً ينفذ إليه الطلبة والمدرسون ، ويلقى عليهم دروسه ،
ويرى أن هذه الوسيلة فى التعليم أنفع من التعليم بالكتاب . ولنا أن نقول
مطمئنين : إن دار على مبارك هذه إحدى ينباع النهضة الأولى ، التى تفجرت
منها الوطنية الحقّة .

لقد كانت داره هذه صالوناً ثقافياً لرجال الفكر ولمن يريد ، دون دعوة أو
معرفة سابقة ، ويحكى عبد العزيز باشا فهمى عن ذلك ، فيقول :

« كنت يوماً فى بيت على باشا مبارك ، والناس تموج فى بيته ، والحجرة
مزدحمة بالزوار ، وعلى باشا يتصدر حجرة منها ، فحضر مصطفى باشا
رياض ، وكان ناظر النظر ، إذ ذاك ، وأخذ يخوض فى الناس حتى وصل إلى
على باشا مبارك ، فقال له : ما هذا يا باشا ؟ فقال له : يا دولة الرئيس : إنّا
فى بلد يهاب الناس فيه أن يخاطبوا معاون إدارة أو مأمور مركز ، أو أى
موظف حكومى ، فإذا نحن جرّأناهم علينا ، وخاطبناهم وخاطبونا أمكنهم أن
يخاطبوا الموظفين فى غير هيئة ، وتعودوا أن يطالبوا بحقوقهم ، وقالوا : إنّا
نجالس الناظر ونخاطبه ، فلم لا نخاطب من هو أقل منه منزلة ؟ . ورأى
التلميذ مصطفى كامل بمدرسته الثانوية أثناء زيارته لها ، وشعر بأنه يتمتع
بشخصية قوية ، وأثنى على فصاحته وشجاعته وقوة حجته ، وقال له مشجعاً :
« إنك امرؤ القيس » وبشره بمستقبل عظيم ، ودعاه إلى منزله ، وقدمه إلى
كبار رجالات المجتمع ، وحاوره فى حضورهم حول عديد من قضايا العلم
والإصلاح ، وأسبغ رعايته على هذا الصبى الذى صار بعد ذلك زعيم مصر
الأول ، ومنحه بعض المزايا المدرسية ، وبقي أثر هذه الرعاية وهذا العطف فى

نفس مصطفى كامل بقية عمره ، وظل يذكر على مبارك بعد أن صار زعيماً كبيراً ، ويدافع عنه ، ويمدحه ، ويعرف فضله عليه وعلى وطنه .

أعمال على باشا مبارك الهندسية :

تولى وزارة الأشغال سنة ١٨٦٨ ، وعهد إليه الخديو اسماعيل بمعظم الأعمال الهندسية ، فوسّع شوارع القاهرة وحاراتها ، وأنشأ أحياءها الجديدة ، مثل شارع محمد على وميدانه ، وشوارع الأزبكية وميدانها ، وشوارع عابدين ، وباب اللوق ، واستحدث الإنارة بغاز الاستصباح ، وأقام كوبرى قصر النيل البديع ، وأسهم فى أعمال العمران بالإسكندرية والسويس ، وفى إنشاء الدواوين والجسور والقناطر والترع ، واشترك فى مدّ كثير من الخطوط الحديدية ، وإنشاء محطاتها .

وقد بذل فى ميدان الإنشاءات الهندسية والمعمارية جهداً الجابرة ، ويتحدّث عن دوره فى هذه الأعمال فيقول : « فهذه الأعمال جميعها ، أو أكثرها كنتُ أبأشر أوأمرها من رسومات ، وشروط مع المقاولين ونحو ذلك ضرورةً تعلّقها بديوان الأشغال ، فكنتُ فى مدة إحالة هذه الدواوين على مشغولاً بالمصالح الميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ، ليلاً أو نهاراً ، حتى لا أرى وقتاً ألثقت فيه لأحوالى الخاصة بى ، ولا أدخل بيتى إلا ليلاً ، بل كنت فى الليل فيما يُفعل بالنهار » ، لقد حقق علمه الهندسى العسكرى ، وثقافته المعمارية المدنيّة عقلاً هندسياً ، صار أشهر عقول مهندسى عصره ، فصار بحق أعظم مهندسى الزراعة والصناعة والعمارة فى عصر نهضة مصر فى القرن التاسع عشر .

كلمة أخيرة :

من الصعب على الباحث فى مسيرة هذا المصلح العظيم أن يحصر آثار أعماله فى حياته وآثارها بعد مماته ، فأعماله لم تكن محدودة بمجال معين ، ولا بفئة خاصة من الناس ، وإنما كانت تمسّ كل مصرى فى تعليمه وزراعته ، فأنشأ

القناطر والجسور ، ونظّم المدن ، وأقام المباني ، ونشر التعليم ، والثقافة العامة ، وسعى من أجل بناء الإنسان المصرى وإعادة الثقة إليه .

وأمثال هذا الرجل قليلون فى التاريخ ، يأتون فى فترات متباعدة ، ويعقق كلٌ منهم من الإصلاح ما يمتد عصوراً كبيرة ، ولقد تجلّى هذا الرجل المصرى الأصيل بالأخلاق العالية ، والصفات النبيلة وبالاستعداد الفطرى ، متعدد القدرات والمواهب ، وقد أعده الله جل وعلا ليحقق لمصر تحولاً شاملاً ، وتغييراً عاماً ، نرى آثاره إلى الآن ممتدة وارفة الظلال .

لقد اضطلع على مبارك وطلاب البعثات منذ عهد محمد على وغيرهم من رجال الفكر والإصلاح فى مصر بأعباء نهضتها الحديثة ، وهذا يوضح أن أبناء مصر بناء نهضات ، وصنّاع حضارات ، وما تزال مصر تنجب النوابغ والنابهين من العلماء والأدباء والشعراء والقادة ، فمصر منجمٌ ثرى يقدم أحسن الثروات وأغلاها وأبقاها على مر الأيام والسنين .

